أفعل التَّفضيل في اللغات: السَّاميَّة والعربيَّة
دراسة مقارنة. السُّور المكيَّة في القرآن الكريم أنموذجًا

علي أحمد عيفان الطوالبة [1]* وعلي زعل محمود الخمايسة[2]

كلية الآداب واللغات / جامعة الإسراء / الأردن

Dr.alizaal@gmail.com atawalbeh@qf.org

ملخص البحث

يهدفُ البحثُ إلى دراسةِ « أفعل التّفضيل» دراسةً صرفيّةً دلالية في أشهر اللغات السّاميّة واللغة العربيّة، من حيث: تعريفه، وشروط صياغته، والأنماط التي يأتي عليها، ثُمَّ الوقوف على المعاني الدِّلاليَّة له في سِياق الآياتِ المكّيّة؛ حيثُ استنتجَ الباحثان بعضَ المعاني الدِّلاليّة متبعين المنهجِ الاستقصائي المبني على أدلّةٍ مستنبطةٍ من مظان كتب التّفسير وشروحها. كما تمّت الإشارةُ إلى صيغة التّفضيل في بعض اللغات الساميّة، في محاولةٍ لإيجاد مقاربة بين اللغات السامية والعربية؛ حيثُ قام الباحثان بدارسةِ صيغة «أفعل التَّفضيل» في بعضِ اللغات السَّاميَّة من حيث: اهتمام علماء اللغة العربية، والمستعربين الأوائل بربط بعض موضوعات الصَّرف العربي بموضوعات الصَّرف في اللغات السّاميّة، ويتضّمنُ البحثُ - أيضًا - دراسة الصياغة الاشتقاقيّة لأفعل التَّفضيل، ودلالاته، ووظيفته النّحويّة في سياقات من اللغات السَّاميَّة. يعرضَ البحثُ بإيجازٍ نماذجَ من الدّراسات السّابقة، التي اعتنتْ بدراسةِ بعض الموضوعات الصّرفيّةِ في القرآنِ الكريم: كاسمِ الفاعلِ، وصِيَغِ الجموع، وصيغ المبالغة، واسم التفضيل...، ويُختتم البحث بالنتائج، لعلّ أهمَّها تفسيرُ سببِ كثرةِ دوران «أفعل التفضيل» في السِّياقِ القرآني المكّي.

الكلمات المفتاحيّة: أفعل التفضيل، السور المكيّة، اللغات السّاميّة، الدّلالة

Abstract

This research aims at studying the comparative form (afo'al) in the most famous Semitic languages and in Arabic from a semantic and morphological perspective covering its definition, formation rules and basic patterns. It identifies its semantic meanings in the context of the Mekkan Quranic verses. The researchers used an investigative strategy based on evidence from scholar sayings that were originally determined from exegesis, "Tafsir" texts, and their interpretation to deduce some semantic meanings. The study looks at the comparative form in a few Semitic languages to see whether there is any connection between them and Arabic. The comparative form in the former languages has been examined in light of Arabic scholars' and early Arabists' interest in connecting some aspects of Arabic morphology to those of Semitic languages. The examination of the Semitic comparative form in terms of origin, connotation, and grammatical function was also included in the research.

The study briefly presents examples from previous studies that focused on studying some morphological issues in the Holy Quran such as the gerund, the irregular plural form, the formula of exaggeration and the superlative form, with some observations in place. The study came to various results, the most important of which is an explanation for the frequent usage of the comparative form in Meccan Quranic contexts, as well as a link between all of this and the Arab mentality's need for the ideal in order to reach optimum performance.

Keywords: comparative form, Meccan suras, Semitic languages, connotation.

تاريخ الإستلام: ٢٠٢١/٣/٦ تاريخ القبول: ٢٠٢١/٦/٤

مجلة جدارا للدراسات والبحوث
المجلد (السابع) لعام (2021)

المقدمـــــــة

القـرآن الكـريم هـو رحمـةٌ مُهـداة مـن اللّه للعالمـين، أنزلـه - عـزّ وجـلَّ - ليُتلـى، ويُعمَـلَ بمقتضـى أوامـره ونواهيـه، وهـو محفـوظ مـن أيِّ تحريـف مصداقًـا لقولـه تعالى:﴿إِنَّـا نَحـنُ نَزَّلنَـا الذِّكـرَ وَإِنَّـا لَـهُ لَحافِظونَ﴾ الحجـر،9. وأقبـل المسلمون علـى القـرآن منـذ نزولـه علـى الرسـول- صلـى اللّه عليـه وسـلم - حيـث حفظـه الصحابـة - رضـوان اللّه عليهـم - وحفظـه التابعـون أيضًـا. وتوالـى الاهتمـام بالقـرآن في العصـور المتعاقبـة، فألّـف العلمـاء في إعجـازه، وتفسـيره، وبلاغتـه، وصنّفوا معاجم لألفاظه، ولا تـزال الدراسـات في هـذا المجـال مستمرة لا تنفـد؛ فالقـرآن الكـريم هـو الحجـة البالغـة، وهـو أوثـق مصـدر في الوجـود. ولغـة القـرآن الكـريم كمـا قـال الفـرّا: أفصـح أسـاليب العربيـة علـى الإطـلاق.

تنـاول القدمـاء دراسـة القـرآن مـن النّاحيتـين: النّحويـة، والصّرفيّـة (الحمـلاوي،1928) ووضعـوا الحـدَّ العـام لأفعـل التفضيـل: صيغـة مشـتقة مـن فعـلٍ لموصـوف للدلالـة علـى أنّ شيئين اشـتركا في صفـة، وزاد أحدُهمـا علـى اخـر، وقـد تكـون الصفـة إيجابيـة، أو سـلبية، أي قـد تكـون الصفـة مدحًـا، أو ذمًـا. ومـن المحدثين (مفتـاح العلـوم 1983) (2) مـن أخـذ بهـذا ولـم يضيفـوا شـيئًا.

وللدِّراسـات المُعجميّـة، والصَّرفيَّـة المقارنـة فوائـد جمّـة، فقـد أهتـمَّ العـربُ القدمـاءُ مـن اللغويـين والنَّحويـين بالدِّراسـات المقارنـة في المعاجـم والصَّـرف، وقـد أنتجـوا لنـا علمًـا مُتميّـزًا ليـس لـه مثيـلٌ في الحضـارات الأخـرى، ويشـهد علـى ذلـك مـا تركـوه لنـا مـن دراسـاتٍ رفيعـة، وعلـى رأسـها كتـاب سـيبويه، إضافـة إلـى معجـم العـين، للخليـل بـن أحمـد الفراهيـدي الذي أشـارَ إلى التَّشـابُهِ الواضـح بين العربيةِ الفصيحةِ، وشـقيقاتها مـن اللغـاتِ السَّـاميَّة خـلال قولـه: «إنَّ الكنعانيـين هـم أبنـاءُ سـام بـن نـوح، وأنَّهـم كانـوا يتكلَّمـون لغـةً، هـي الأقـربُ إلـى العربية»(الفراهيـدي /205م)(3) 0. ومـن الآثـارِ الأُخـرى في الدِّراسـاتِ النَّحويَّةِ، والصَّرفيَّة المقارنـة: «كتـاب جـلاء الغبـش عـن لسـان الحبـش»، لأبـي حيَّـان الأندلسـي الـذي درسَ اللغـةَ الحبشـيَّةَ. ونظـراً لقلّـة الاكتشـافاتِ الآثريَّـة المُتعلِّقـة بالنقـوشِ الكتابيَّـة، واللغويّـةِ في ذلـك الحـين، لـم يتوصـلْ أجدادُنـا الأوائـلُ إلـى كثيـرٍ مـن الحقائـقِ اللغويَّـةِ حـول المُشـترَكِ اللغـوي بـين العربيَّـة وشـقيقاتِها السَّـاميَّات، كمـا توصَّـلَ إليـه المُحدَثون مـن علمـاء اللغـة.

ونظـرًا لأهميَّـة الدِّراسـاتِ المقارنـة التـي تُثـري البحـثَ العلمـيَّ؛ فقـد ارتـأى الباحثـان دراسـةَ صيغـة «أفعـل التَّفضيـل» في اللغـات السَّـاميّة؛ حيـثُ اختـارا أشـهرَ لغتـين سـاميّتين حيتـين، همـا: العبريَّـة والسّـريانيّة، ودرسـا هـذه الظَّاهـرةَ الصَّرفيَّـةَ فيهمـا دراسـةً اشـتقاقيَّةً ودلاليَّـةً، ثـم قارنـا هـذه الظَّاهـرةَ حسـب ورودهـا في هاتـين اللغتـين السَّـاميّتين، وبمـا جـاء في عربيَّـة القـرآنِ الكـريم، وتوصـلا إلـى مجموعـةٍ مـن الحقائـق العلميَّـة التـي تضمَّنتهـا خاتمـةُ البحـث.

مشكلة البحث

تكمُـنُ مشـكلةُ البحـث في بيـان أهميّـة العلاقـة بـين المفاهيـم الصَّرفيَّـة، وتوظيفهـا الدلالـي في النصـوص العربيـة الفصيحـة، ومـن جانـب آخـر أهميـة بحـث أوجـه المقارنـة، والمقاربـة بـين اللغـات السـامية، ومـا هـي وشـائج التلاقـي في المفاهيـم الصرفيّـة بـين اللغـات السـامية ممثلـة باللغتـين: العبريـة، والسُّـريانيّة، ومقارنتهمـا بمـا جـاء في عربيـة القـرآن الكـريم.

أسئلة البحث

سيجيبُ البحثُ على الأسئلة الآتية:

1- كيـف يصـاغ أفعـل التفضيـل في اللغـة السـامية: البريـة، والسـريانية، والعربيّـة، ومـا هـي أنماطـه التركيبيّـة؟

2- مـا الصـور التـي جـاء عليهـا أفعـل التفضيـل في سـياق السـور المكيّـة؟

3- مـا هـي الـدّلالات السّـياقيّة لأفعـل التّفضيـل في التّعبيـر القرآنـي المكّـيّ؟

-4ما المعاني الدلالية لأفعل التفضيل في السياق القرآني المكي؟

-5 ما المعاني الدّلاليّة لأفعل التّفضيل في اللغات السّاميّة؟

أهداف البحث

يهدف البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

أولًا: الكشف عن كيفية صياغة أفعل التفضيل في اللغات السامية(العبرية، والسريانية)، ومقارنتها باللغة العربية.

ثانيًا: إجراء تطبيق صرفي على الصور التي يأتي عليها أفعل التفضيل في النص القرآني (سياق السور المكية).

ثالثًا: توضيح المعاني الدلالية لأفعل التفضيل في اللغات السامية بشكل عام، ووالمعاني الدلالية لأفعل التفضيل في السياق القرآني المكي.

الدراسات السابقة

لقي القرآن الكريم عناية كبيرة من الدّارسين قديما وحديثًا، فتناولوا إعجازه وبلاغته، وتفسير آياته، ودراسة أبنيته النحوية والصرفية، ومن الدراسات الصرفية التي تناولت القرآن الكريم ما يأتي:

- صيغ الجموع في القرآن الكريم، للدكتورة وسمية عبد المحسن منصور. ط: 1، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية - الرياض 2004.

- صيغ المبالغة في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، أشرف عليها: الدكتور علي أحمد طلب، إعداد: فاطمة عبد الله مراوعي، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى.

- اسم الفاعل في القرآن الكريم «دراسة صرفية نحوية دلالية في ضوء المنهج الوصفي»، لسمير «محمد عزيز» نمر موقده.. رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين - نابلس 2004.

- العدول في صيغ المشتقات في القرآن الكريم دراسة دلالية. بحث مقدم لنيل درجة الماجستير إعداد الطالب :جلال عبد الله محمد سيف الحمادي، إشراف :أ . د . عباس علي السوسوة. جامعة تعز- كلية الآداب، الجمهورية اليمنية 2007.

- بحث بعنوان(4): صيغة أفعل التفضيل في القرآن الكريم، دراسة نحوية، للدكتور أحمد إبراهيم الجدبة و الأستاذ بسام حسن مهرة.

- بحث بعنوان(5): أفعل التفضيل في القرآن الكريم، بقلم: توفيق محمد الجوهري سبع.

- بحث بعنوان(6): أسلوب التفضيل في القرآن الكريم، للدكتور أحمد عبد السّتار الجواري.

منهج البحث

- اتّباع المنّهجَ الوصفي التحليلي في المستوى الصّرفي، والدلالي؛ لرصد الآيات القرآنية في السور المكيّة المشتملة على أفعل التفضيل، ثم تحليل الدلالة التي أفادها أفعل التفضيل في إطار السياق العام للآية. وقد استفاد الباحثان من الدراسات الوصفيّة، والدلالية القديمة والحديثة؛ كما استعانا بأمهات كتب التفسير؛ بهدف الوصول إلى نتائج مفيدة في نهاية البحث.

- بحث أفعل التفضيل من النّاحية الصرفية كما ورد في كتب التراث. وكتب المحدثين، وإثبات رأي بعضهم

في المتن، والإحالة على الآخرين في الهامش. وإبداء الرّأي في ذلك.

- استنتاج المعاني الدلالية لأفعل التفضيل في مواضع دورانه في السّور المكيّة.

- التّعليق على الآيات المستشهد بها، وتحليلها صرفيًا، ودلاليًا .

- تخريج الآيات القرآنيّة الواردة في المتن بذكر اسم السورة ورقم الآية أفعل التَّفضيل في اللغات: السَّاميَّةِ والعربيَّة، دراسة مقارنة. السُّور المكيَّة في القرآن الكريم أنموذجًا» شروط صياغة أفعل التفضيل.

(أ) في اللغة العربيّة.

حدّد العلماء(7) شروطًا لصياغة أفعل التفضيل، هي:

- أنْ يكون فعلاً ثلاثيًا، نحو قوله تعالى:﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ القصص،34.

أفصحُ: اسم تفضيل صيغ من الفعل الثلاثي (فَصُحَ) .

- أنْ يكون الفعلُ متصرفًا، فلا يُصاغ من الأفعال الجامدة: نِعْمَ، وبئسَ، وعسى، وليسَ.

- أنْ يكون الفعلُ تامًا، وبذلك تخرج الأفعال الناقصة.

- ألاّ يكون الفعلُ منفيًا .

- أنْ يُصاغ من فعلٍ يقبلُ المفاضلة والتفاوت، فلا يُصاغ - مثلا - من: فَنِيَ، ومَات.

- ألّا يكون الفعل مبنيًا للمجهول.

- ألاّ يكون الوصف منه على وزن: أفْعَل الذي مؤنثه: فَعْلاء، نحو: أبيض، أَعور، أعْرج.

استعمل العرب ثلاث كلمات للتفضيل ليست على وزن (أفْعَل)، هي: (خَيْر، وشَرٌّ، وحبّ)؛ إذْ مَنَعَ ابنُ السِّكِّيت ت244ه مجيء (خير، وشرّ) بالهمزة، فقال: «وتقول: فلانٌ خيرُ النّاسِ، وفلانٌ شرُّ الناسِ، ولا تقل: أخْيَرَ الناس، ولا أشَرّ الناسِ»(8). وينقل الأزهري ت 905هـ رأيا للأخفش يبين فيه أنّ حذف الهمزة من (خير، وشرّ)؛ لأنهما: « لم يُشتقا من فعل خُولف لفظهما، فعلى هذا فيهما شذوذان: حذف الهمزة، وكونهما لا فعل لهما»(9). وعلل السيوطي ت911ه(10) حذف الهمزة من (خير، وشر) بكثرة الاستعمال، وعدّ مجيئهما بالهمزة نادرًا .

جاءت (أحبّ) بالهمزة للتفضيل في ثلاث آيات في القرآن الكريم، هي قوله تعالى:

- ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ يوسف،8.

- ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يوسف، 33.

- ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ التوبة، 24.

وورد اسم التفضيل (خير) في:

قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ البقرة، 216.

وقوله تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ البقرة، 221.

ذكرنا في شروط صياغة أفعل التفضيل: أنّه يُصاغ من فعل ثلاثيّ؛ لكنّا وجدنا الرازي المتوفّى 606ه يذهب مذهب سيبويه في جواز صياغة أفعل التفضيل من غير الثلاثي، فيقول:

« فَإِنْ قِيلَ: مِمَّ بُنِيَ أَفْعَلُ التَّفْضِيلِ؟ أَعْنِي: أَقْسَطُ وَأَقْوَمُ.(الواردة في قوله تعالى: ﴿ ذلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ وَأَدْنى﴾البقرة،282. قُلْنَا: يَجُوزُ عَلَى مَذْهَبِ سِيبَوَيْهِ أَنْ يَكُونَا مَبْنِيَّيْنِ مِنْ أَقْسَطَ وَأَقَامَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَقْسَطُ مِنْ قَاسِطٍ، وَأَقْوَمُ مِنْ قَوِيمٍ»(11)

وينقل الرازي رأيًا لأحمد بن فارس المتوفى 395ه يخالف فيه رأي سيبويه، فيقول: « قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيّ قَوْلُهُ: أَحْصى لَيْسَ مِنْ بَابِ أَفْعَلِ التَّفْضِيلِ؛ لِأَنَّ هَذَا الْبِنَاءَ مِنْ غَيْرِ الثُّلَاثِيِّ الْمُجَرَّدِ لَيْسَ بِقِيَاسٍ فَأَمَّا قَوْلُهُمْ: مَا أَعْطَاهُ لِلدِّرْهَمِ، وَمَا أَوْلَاهُ لِلْمَعْرُوفِ، وَأَعْدَى مِنَ الْجَرَبِ، وَأَفْلَسُ مِنَ ابْنِ الْمُذْلِقِ، فَمِنَ الشَّوَاذِّ. وَالشَّاذُّ لَا يُقَاسُ عَلَيْهِ، بَلِ الصَّوَابُ: أَنَّ أَحْصَى فِعْلٌ مَاضٍ وَهُوَ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ»(12).

يُلاحظ مجيء صيغتي:(أكثر، وأشدّ) مع اسم التفضيل المستوفي للشروط؛ لغايات دلالية، نحو:

- قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ الكهف،54. فـ (جَدَلا) مصدر للفعل: جَدَلَ، وهو فعل مستوفٍ لشروط صياغة أفعل التفضيل، ومجئ صيغة (أكثر)؛ لتبين صفة الجدل التي يتصف بها هذا الإنسان، فهو لا يتصف بالجدل حسْبُ، بل يتصف بكثرة الجدل، فإضافة (أكثر) تعبّرُ عن غاية دلالية، وهي تبيان صفة الجدل المتأصلة في الإنسان.

- وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ مريم، 69. لم يأتِ السياق القرآني بـ(أعتى) كاسم تفضيل على الرغم من استيفاء اللفظ لشروط صياغة اسم التفضيل، لكنّه آثر الإتيان بـ(أشدّ)؛ لبيان شدّة جبروت هؤلاء.

- وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي، أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا، وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ القصص،78. القوة، والجمع: لفظان يصلحان لصياغة أفعل التفضيل منهما؛ إلّاَّ السياق القرآني جاء بصيغتي: أكثر، وأشدّ معهما؛ لبيان أنّ الأقوام التي أُهلِكَتْ قبل قارون كانت قوتُهم أشدَّ من قوة قارون، وجمعهم للمال أكثر من قارون، ومع ذلك دمّر رهم الله، فأنت ياقارون لنْ تعجز الله. وللغاية الدلالية نفسها جاءة كلمة: (أشدّ) مع لفظ (القوة) المستوفي لشروط صياغة التفضيل في قوله تعالى:﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً، أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ فُصلت، 15

(ب) في اللغات السَّاميَّة:

يُشْتَقُّ اسمُ التَّفضيلِ في العِبْريَّة على وزن (مفعول: ماثوك) من الجذرِ الثُّلاثي: (فعل: ثوك)، وهو فِعْلٌ تامٌّ وليس ناقصًا، ومتصرِّفًا، وليس جامدًا، ومعناه: قابلٌ

للتّفاضل والتّفاوت،

(هدييـاش ماثـوك مهاتفـوح) أي: الدِّبـسُ (العسـل) ماثوك (أحلى) من التُّفاح. واشتقاقه هذا مختلفٌ عن اشتقاقه في العربيَّة. أمّا في السّريانيّة فيُشْتَقُّ على وزنِ (فعل: طاب) من الجذر الثُّلاثي (طَوَبَ)، وهو فِعْلٌ تامٌّ وليس ناقصًا، ومتصرِّفًا، ليس جامدًا، ومعناه: قابلٌ للتّفاضل والتّفاوت، (طاب عوير بعينوهي من هو دعوير بِلِبَّه) بمعنى: أعمى العينين أفضل من أعمى القلب، واشتقاقه هذا مختلفٌ عن اشتقاقِه في العربيَّة، وكذلك ترتيبه في الجملة؛ إذْ ترتيبه في السّريانيَّة يسبقُ صيغةَ التَّفضيل للأمرين اللذين يشتركان في صفةٍ واحدة، ولكنَّها تزيدُ في واحدةٍ منهما على الأخرى.

أنماط اسم التَّفضيل، وأحواله التركيبية في

أ- اللغة السّامية:

يُصاغُ «أفعل التَّفضيل» في اللغة العبريَّة بإضافة حرف الجر (من) (מִן) بعد الصِّفَة، والشَّاهدُ على ذلك قولهم بالعبريَّة: (هدييـاش ماثـوك مِهاتفـوح) بمعنى: الدّبس (العسل) أحلى من التُّفاح(14). أمّا في اللغة السّريانيَّة فيصاغُ اسمُ التَّفضيلِ من صفةٍ نكرةٍ مسبوقةٍ بحرف الجَرِّ (من) في بعضِ الأحيان، وفي أغلبها تُسْبَقُ ألفاظُ التَّفضيلِ بحرف الجر (من)، مثال: (طاب عوير بعينوهي من هو دعوير بِلِبَّه). بمعنى: أعمى العينين أفضل من أعمى القلب(15).

وهناك صيغةٌ أُخرى في السّريانيّة لصياغة اسم التَّفضيل تقومُ على إضافة المُفَضَّلِ إلى المفضَّلِ عليه، مثال على ذلك قولهم في السّريانيّة: (ربا دتلميذا) بمعنى : أكبر التّلاميذ(16).

لا تعملُ صيغةُ «أفعل التّفضيل» في الجملة في اللغات السَّاميّة كما تعملُ في سياق الجملة العربيّة؛ ذلك أنّ اللغاتِ السَّاميَّة لا إعراب، ولا نحو فيها، وبالتّالي لا وظيفة إعرابيّة للمصطلحات الصَّرفية، أو النحويّة في سياقِ جُمَلِها.

ب- اللغة العربيّة:

الأول: يأتي مقترنا بِمِنْ التفضيلية ملفوظًا،نحو قوله تعالى: ﴿لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا﴾ المائدة، 107، وقوله: ﴿وَمَساكِنُ تَرضَونَها أَحَبَّ إِلَيكُم مِنَ اللَّهِ وَرَسولِهِ﴾ التوبة،24.

الثاني: يكون مقترنًا بِمِنْ التفضيلية ملحوظة، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَعَذابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ الرعد،34. وقوله: ﴿وَالباقِياتُ الصّالِحاتُ خَيرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوابًا﴾ الكهف،46. وقوله: ﴿هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ النحم،52.

الثالث: يأتي مضافًا إلى نكرة، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ البقرة،41. وقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ التّين،6.

الرابع: يُضاف إلى معرفة، نحو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ البقرة،204، وقوله: ﴿وَقالَت أولاهُم لِأُخراهُم﴾ الأعراف، 39، وقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فُصّلت،27.

الخامس: يأتي معرّفًا بالألف واللام، نحو قوله تعالى:﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ النساء،33. وقوله:﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ

العُلى﴾ طه، 75. وقوله:﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ النجم، 31.

ويُلاحظ أنّ (أفعل التفضيل) يأتي مفردًا مذكرًا عند اقترانه بمن التفضيلية الملفوظة، أو الملحوظة، وكذلك عند إضافته إلى نكرة. أما في حال تعريفه بالألف واللام فيجب أنْ يكون مطابقًا لموصوفه، وألاّ يُؤتى معه بمن جارة للمفضل عليه، وعند إضافة (أفعل التفضيل) إلى معرفة فتجوز فيه المطابقة وعدمها. ويرى الباحث أنّ العربية تميل إلى تيسير النطق، فنطقنا لـ (الزيدون أفضل القوم) بعدم المطابقة أيسر وأسهل من قولنا: (الزيدون أفضلو القوم) بالمطابقة.

ما المقصود بالسُّور المكّية، والسُّور المدنيّة؟

صنَّف العلماء السُّور والآيات في القرآن الكريم إلى: مكيّة، ومدنيّة، واختلفوا في تحديد المقصود بهما، ويمكن تلخيص آراء العلماء على النحو الآتي(17):

القسم الأول: قسّموا السُّور والآيات على أساسٍ زمانيٍّ؛ إذْ جعلوا الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة حدًّا فاصلا بين مرحلتين متميزتين في تاريخ الدعوة الإسلامية، فعدّوا ما نزل قبل الهجرة (مكّيًا)، وما نزل بعدها (مدنيًا) بصرف النظر عن موطن النزول. ويبدو أنّ هذا الرأي يأخذ به أغلب العلماء كما قال الدكتور يوسف خليف.

القسم الثاني: قسَّم هؤلاء العلماء السور والآيات إلى مكية ومدنية على أساسٍ مكانيٍّ، فما نزل في مكة فهو (مكّي)، وما نزل في المدينة فهو (مدنيٌّ)، دون النظر لزمان النزول.

القسم الثالث: وأقام هؤلاء تقسيمهم على أساس المخاطبين، فـ(المكّي) عندهم: ما كان مخاطبًا لأهل مكة، و(المدنيُّ) ما خُوطب فيه أهل المدينة. ويرى الباحثان أنّ تحديد الآيات والسور وفق رأي هؤلاء تعتوره صعابٌ جمّة؛ ذلك أنّ الخطاب القرآني لا يخصُّ قومًا دون سواهم، وإنْ جاء ما يشبه ذلك فلأخذ الدّروس والعبر للأجيال اللاحقة.

وبيّن الدكتور يوسف خليف(18) أنّ الآيات في كتاب الله قد رُتبت بتوقيفٍ من النبيِّ - صلى الله وسلّم - وبوحيٍّ من الله سبحانه وتعالى؛ لهذا فقد تجاورت الآيات المكيّة والمدنيّة في كثيرٍ من السُّور، فنجد في السُّورة المكيّة آياتٍ مدنيّة، وفي السور المدنية آيات مكيّة. وسُميت السُّورة بالمدنية، أو المكية بالنظر لأكثر آياتها.

أفعل التفضيل في سياق السُّور المكيّة

أولاً: لماذا السّور المكية؟

يشتمل القرآن الكريم على مائة وأربع عشرة سورة، وقد بلغ عدد السور المكية سبعًا وثمانين سورة، بنسبة بلغت (76,31)، ووردت صيغة التفضيل في أربعٍ وستين سورة مكيّة، بنسبة مقدارها (73,56). أما عدد الآيات في السُّور المكيَّة فوصلت إلى (4483) آية، ذُكرت صيغة التفضيل في ثمانٍ وستين وخمسمائة آية، بنسبة وصلت إلى (12,69).

لِمَ كثُر دوران صيغة أفعل التفضيل في السِّياق القرآني المكي؟ وما علاقة ذلك بمضامين السِّياق القرآني المكّي؟

قد يكون لهذا وذاك ارتباطٌ وثيقٌ بالعقلية العربية، لاسيّما إذا علمنا أنّ السُور المكيّة هي الأقرب زمانيًا للحقبة الجاهليّة من السُّور المدنيّة، وهذا يعني أنّ القرآن الكريم كان شديد العناية بالعقلية العربية؛ إذْ جاء بما تطرب له أذن العربيّ جرسًا، وإعجازًا، وبيانًا، وبما يُرضي عقليته العربية القديمة التي كانت « أقرب إلى المثاليّة منها إلى الواقعيّة، بل هي لا تكاد تُقيم هُوّة بين الواقع، والمثل الأعلى، وأنّ الواقع والمثل الأعلى متواصلان، وهذه المثاليّة من نوع خاصّ تختلف عن المثاليّة المعروفة في تاريخ الفلسفة، كما يختلف الواقع في العقليّة الأصيلة عن غيره بأنّه يتكوّن بحركة هابطة تتجه من الأعلى إلى الأسفل»(19).

وقد كانت العقليّة العربية دافعًا للعرب؛ ليأتوا بأمثالٍ كثيرة على صيغة التفضيل، حيثُ لاحظ الدكتور عفيف عبد الرحمن(20) كثرة دوران أفعل التفضيل في الأمثال العربية، إذْ وقفَ على أكثر من ألف وستمائة وخمسين مثلاً يشتمل على أفعل التفضيل، وعلَّل الدكتور عفيف ذلك بارتباطه بالعقلية العربية التوّاقة للوصول إلى ما بعد المثال. من هنا جاء القرآن الكريم مخاطبًا تلك العقلية بما يروق لها في بداية الدعوة الإسلامية، فالقرآن لم يأتِ؛ ليَفْصِلَ الإنسانَ عن واقعه وحياته، إنّما جاء؛ ليُقوِّم السّلوك الخطأ في حياة البشر، ولتحقيق ذلك لم يجدِ العربيُّ الأصيلُ صُعوبةً في الاندماج مع آي السّياق القرآني الذي جاء مُنسجمًا مع رغباته العقليَّةِ، ومُتوافقة مع واقعه اللغوي القويّ، بل ومتفوقة عليه.

ويتفق الباحثان مع الأستاذ الدكتور عفيف عبد الرحمن بأنّه لا بُدّ من مبرِّر لنزوع العقلية العربية إلى المثال؛ إذْ يرى أنّ الحياة الماديّة القاسيّة التي كان العربُ يحيونها قد تكون أحد الأسباب. ولعل هناك سببًا آخر لاستمرار السياق القرآني المكّي بتعزيز هذا النزوع نحو المثاليّة؛ إذْ أراد القرآن نقل العرب من مثاليتهم الهادفة؛ للوصول إلى نماذج بشريّة يُقتدَى بها، – وعندئذٍ تكون مثاليّة ماديّة خالصة –؛ لينتقلوا إلى مثاليّة معنويّة قد لا ينالهم منها نصيب في حياتهم الدُّنيا، إنّما يكون ذلك جزاء لهم في الآخرة، فما على الأرض من زينة هو ابتلاء للناس؛ لتمييز أيّهم أحسن عملا، والأمثلة القرآنية على ذلك كثيرة ، منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلنا ما عَلَى الأَرضِ زينَةً لَها لِنَبلُوَهُم أَيُّهُم أَحسَنُ عَمَلًا﴾ الكهف، 7.

وقوله: ﴿وَالباقِياتُ الصّالِحاتُ خَيرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوابًا وَخَيرٌ أَمَلًا﴾ الكهف، 46.

وقوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ الفرقان، 24.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ السّجدة، 22.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فُصِّلت، 33.

فالمثالية في الأحسن عملا، وقولا، والخيريّة في الباقيات الصالحات، وفي المستقر، وفي المأوى.. وغير ذلك في آيات المفاضلة في المثاليات المعنوية المُدَّخرة ليوم القيامة تشارك جميعها في غرس العقيدة في النفوس،

تلك العقيدة التي تقوم على الإيمان بالمغيبات: كالثواب والعقاب، والجنة والنّار، والحسنة والسيئة.

الدّلالات السّياقيّة لأفعل التّفضيل في التّعبير القرآني المكّيّ:

يقول عبد الحليم المرصفي: « وأفعل التفضيل من دقائق التّصاريف الاشتقاقية التي تتجلّى فيها عبقرية اللغة العربية؛ ذلك أنّ معنى الاشتراك في صفةٍ مع إثبات الزيادة فيها لأحد المتشاركَيْن يُدَلُّ عليه بلفظ واحد يتضمّن الصّفة المشتركة بمادته، ويتضمّن معنى الزيادة بصيغته، وفي ذلك حُسْن الدِّقة في التّعبير بضبط النّسب بين الأشياء العديدة من حيث اتّصافها بالمعنى الواحد»(21). وينقل المرصفي عن براجشتراسر ما نصه: «واختراع العربية له (أي: لصيغة التفضيل) من علامات ميلها إلى التخصيص واليقين؛ ذلك أنّ أفعلَ التفضيل أكثرُ تخصيصًا من بين سائر أبنية الاسم، كما أنّ استخدامه يُسهِّلُ تركيب الجملة، والتعبير عن الأفكار المشكلة بالتركيبات المشتبكة، مثل: «أنتم أحوج إلى هذا منكم إلى ذلك»(22).

فلاسم التفضيل معانٍ يؤدّيها، مثل: التخصيص، والمشاركة، والزيادة، أو الاتّصاف بالصِّفة، أو المبالغة المطلقة أحيانًا، وكل ذلك ينتجُ عنه دلالات سياقيّة تُسهم في إبراز الدلالة العامة للسياق القرآني: كالتعريض، والتهكُّم، والمبالغة. فما دلالة أفعل التفضيل في السِّياق القرآني المكّي؟

نظر الباحثان في السياق القرآني المكّي، واستنتجا معانيَ دلاليّة متعددة لأفعل التفضيل، منها:

أولاً: الزِّيادة في التهديد والوعيد لمَنْ تنكّب عن الطَّريق القويم؛ بهدف تعديل السّلوك نحو الأفضل، نحو:

◆قوله تعالى: ﴿فَمَن أَظلَمُ مِمَّنِ افتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَو كَذَّبَ بِآياتِهِ أُولـئِكَ يَنالُهُم نَصيبُهُم مِنَ الكِتابِ﴾ (23).

يصف الحقّ - عزّ وجل - كلَّ من كَذَبَ على الله بالافتراء على ما ورد في الكتاب والسّنة، أو لم يؤمن بما جاء بمصادر التشريع في الإسلام بأنّه قد تجاوز حدّ الظلم إلى درجة بوصفه بأنّه أظلم النّاس؛ كما يتوعده الله بالعذاب الشديد، فهي آية «وعيد واستفهام على جهة التقرير، أي لا أحد أظلم منه»(24). يقول الطبري ت310ه في تفسير هذه الآية: « قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فمَنْ أخطأ فعلا، وأجهلُ قولا، وأبعد ذهابًا عن الحق والصواب (ممن افترى على الله كذبًا)، يقول: مَنْ اختلق على الله زُورًا من القول، فقال إذا فعل فاحشة: إن الله أمرنا بها (أو كَذَّبَ بآياته)، يقول: أو كذَّب بأدلته وأعلامه الدّالة على وحدانيته ونبوّة أنبيائه، فجحد حقيقتها ودافع صحتها (أولئك) يقول: مَنْ فعل ذلك، فافترى على الله الكذب، وكَذَّبَ بآياته (أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب)، يقول: يصل إليهم حظُّهم مما كتب اللهُ لهم في اللوح المحفوظ. ثم اختلف أهل التأويل في صفة ذلك»النصيب»، الذي لهم في»الكتاب»، وما هو؟ فقال بعضهم: هو عذاب الله الذي أعدَّه لأهل الكفر به»(25). وفي هذا تصوير لأبشع صورة قد يأتي بها العاصي؛ ليستحق وصف(الأظلم)، ومن هنا يعمد السياق القرآني لأسلوب التحذير، والتنفير من العمل الذي يغضب الحق - عزّوجل - اتقاء الوقوع فيه. وقد

لعب أسلوب التفضيل دورًا رئيسًا في رسم معالم تلك الصورة. فدلالة صيغة (أفعل) في هذه أكّدت على أنّه: « لا أحد أفحش ظلمًا ولا أقبح ظلمًا ممن افترى على اللّه كذبا، مع علمه أنه خالقه، وأنه مُتقلِّبٌ في نعمه، وأحاطت به أياديه وإحسانه»(26).

◆قوله تعالى: ﴿قُل هَل نُنَبِّئُكُم بِالأَخسَرينَ أَعمالًا، الَّذينَ ضَلَّ سَعيُهُم في الحَياةِ الدُّنيا وَهُم يَحسَبونَ أَنَّهُم يُحسِنونَ صُنعًا﴾ الكهف،103، 104. فـ(الأخسرين): هم كثيرو الخسران بما اقترفوا من أعمالٍ أذهبت أعمالهم الصالحة، فأصبحوا أكثر الناس خسرانًا. والأخسر: «هو الوصف بالخسران والنهاية والغاية، وجائز أن يستعمل (أفعل) في موضع (فعل)، هذا في اللغة غير ممتنع، فيكون تأويله: قل هل ننبئكم بالخاسرين أعمالا، كقوله: اللَّهُ أَكْبَرُ، أي: كبير»(27). والأخسرين: «جمع أخسر أي أشد خسراناً من غيرهم أو بمعنى خاسر، وجمع العمل للدلالة على إرادة الأنواع منه»(28).

ولابن عاشورت1393ه تفصيل بديع في البلاغة القرآنية خلال الأساليب الإنشائية الموظفة في هذه الآية، يقول: «وَافْتِتَاحُ الْجُمْلَةِ بِالْأَمْرِ بِالْقَوْلِ؛ لِلِاهْتِمَامِ بِالْمَقُولِ بِإِصْغَاءِ السَّامِعِينَ؛ لِأَنَّ مِثْلَ هَذَا الِافْتِتَاحِ يُشْعِرُ بِأَنَّهُ فِي غَرَضٍ مهمّ، وَكَذَلِكَ افْتِتَاحُهُ بِاسْتِفْهَامِهِمْ عَنْ إِنْبَائِهِمُ اسْتِفْهَامًا مُسْتَعْمَلًا فِي الْعَرْضِ؛ لِأَنَّهُ بِمَعْنَى: أَتُحِبُّونَ أَنْ نُنَبِّئَكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، وَهُوَ عَرْضُ تَهَكُّمٍ؛ لِأَنَّهُ مُنْبِئُهُمْ بِذَلِكَ دُونَ تَوَقُّفٍ عَلَى رِضَاهُمْ. وَفِي قَوْلِهِ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا إِلَى آخِرِهِ ... تَمْلِيحٌ إِذْ عَدَلَ فِيهِ عَنْ طَرِيقَةِ الْخِطَابِ بِأَنْ يُقَالَ لَهُمْ: هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِأَنَّكُمُ الْأَخْسَرُونَ أَعْمَالًا، إِلَى طَرِيقَةِ الْغَيْبَةِ بِحَيْثُ يَسْتَشْرِفُونَ إِلَى مَعْرِفَةِ هَؤُلَاءِ الْأَخْسَرِينَ فَمَا يُرَوِّعُهُمْ إِلَّا أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْمُخْبَرَ عَنْهُمْ هُمْ أَنْفُسُهُمْ. وَالْمَقُولُ لَهُمْ: الْمُشْرِكُونَ، تَوْبِيخًا لَهُمْ وَتَنْبِيهًا عَلَى مَا غَفَلُوا عَنْهُ مِنْ خَيْبَةِ سَعْيِهِمْ»(29). فالآية الكريمة وضعت الكافرين أمام صفتين، هما:

الأولى: أنهم الأكثر خسارةً.

الثانية: أنهم من الغباء بمكان، حيث لا يُدركون حقيقة ما هم فيه من ضياع.

فأفعل التفضيل (الأخسرين) جاء مبيّنًا لحقيقة الأعمال التي يؤدّيها الكافرون، لكنّها أعمالٌ بلا فائدة؛ لأنها واقعةٌ في دائرة الخسران. وأكّد الحقُّ - جلّ وعلا - هذه الزيادة في الخسران بمجئ كلمة (أعمال) جمعًا؛ للدلالة على أنّ الخسارة لم تكن في عمل واحد، بل في أعمالهم المتنوعة والمتعددة كلِّها. وأكّد هذا المعنى محيي الدين الدرويش، حيث قال: « .. وأعمالًا: تمييز، وجُمِع التمييز - وهو أصيل - في الإفراد؛ لمشاكلة المميز، وللإيذان بأنّ خسرانهم إنّما كان من جهات شتى، لا من جهة واحدة».

◆قوله تعالى: ﴿فَسَيَعلَمونَ مَن هُوَ شَرٌّ( ) مَكانًا وَأَضعَفُ جُندًا﴾ مريم، 75.

يقول الطبري ت310ه: «(فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا) ومسكنا منكم ومنهم (وَأَضْعَفُ جُنْدًا) أهم أم أنتم؟ ويتبينون حينئذ أيّ الفريقين خير مقاما، وأحسن نديا»(31). ويفسِّر الزجاج ت311ه الآية بقوله: «أي فسيعلمون بالنصر، والقتل أنهم أضعف جنداً من جند النبي - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين ويعلمون

بمكانهم من جهنم، ومكان المؤمنين من الجنة مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا»(32)، فصيغتا التفضيل في الآية أكّدتا على الزّيادة والكثرة في المكان الشّرير، والجنود الأكثر ضعفًا.

◆قوله تعالى: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ لقمان، 19.

يقول الطبري ت310ه: « أقبح الأصوات لصوت الحمير، أوّله زفير، وآخره شهيق، أمره بالاقتصاد في صوته»(33). ولهذا أراد الله - سبحانه - بيان أنَّ أكثرَ الأصواتِ ذمًّا هي أصوات الحمير؛ لتعديل السلوك الخطأ لدى كل من يرفع صوته بلا ضرورة بصيغة التفضيل؛ ليكون أكثر زجرًا وردعًا.

ففي الآيات التي مرّت بنا نجد الحقّ - جلّ وعلا - يتوعّد كلّ مَنْ يفتري الكذب، وأولئك الذين أصابهم الغرور بحسن أعمالهم، أو بقوتهم. كل تلك الأمور سلوك إنسانيٌّ قد يتصف به كلُّ شخصٍ إنْ لم يكنْ هناكَ رادعٌ يردعه؛ فجاء السياق القرآني المكي؛ ليهذّب هذا المسلم، ويجعله يسلك الطريق القويم، حتى خفض الصوت نبّه له التعبير القرآني راسمًا للصوت المرتفع صورة تعافها النفس الإنسانية الأصيلة المترفعة عن رذائل الأخلاق (صوت الحمار). وهناك آياتٌ قرآنية أخرى(34)جاءت محذرة من السلوك الخطأ باستخدام أفعل التفضيل الذي يفيد تخصيص هذا السلوك بالإنكار عليه؛ بهدف نزع ذاك السلوك القبيح من النفس الإنسانية، وما ذاك إلا لتنشئة جيل مسلم جديد يتمتَّع بحُسن الخلق اقتداء بالمصطفى - صلّى الله عليه وسلّم - الذي كان خلقه القرآن.

والنماذج المشار إليها آنفًا تبيّن كيف أنّ صيغة أفعل قد خصصت صفة الظلم لكل من يفتري الكذب، أو يكذّب بآيات الله، وصفة الخسران لكل مغرور بعمله، والإنكار لكلِّ مَنْ يرفع صوته بلا ضرورة، وغيرها من الصفات، فزادت المعنى عمقًا، وتأكيدًا. وقد وقف الباحث على ما يقرب من ستين موضعًا في الآيات المكية جاءت فيها صيغة أفعل دالة على الزيادة في القبح، وهذه النتيجة تجعلنا نستغرب من الباحث توفيق محمد قوله: « ..فالزيادة في الآيات في الظلم، والطغيان، والضلال، وهي معانٍ قبيحة وسيئة، واستعمال أفعل في ذلك قليل في القرآن، ولكنّه واردٌ على أي حال»(35). فإذا وقف الباحث على ستين موضعًا في الآيات المكيّة وحدها، فكم سيكون الرقم في القرآن كلِّه؟!

ثانيًا: تقريب المعنى لذهن المتلقي، وإضافة حُسْن الأداء والإبداع:

هناك آيات مكيّة متعددة جاء أفعل التفضيل فيها؛ لتقريب المعنى لذهن المتلقي، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَد ذَرَأنا لِجَهَنَّمَ كَثيرًا مِنَ الجِنِّ وَالإِنسِ لَهُم قُلوبٌ لا يَفقَهونَ بِها وَلَهُم أَعيُنٌ لا يُبصِرونَ بِها وَلَهُم آذانٌ لا يَسمَعونَ بِها أُولـئِكَ كَالأَنعامِ بَل هُم أَضَلُّ أُولـئِكَ هُمُ الغافِلونَ﴾ الأعراف، 179.

ويُلاحظ أنّ الأسلوب القرآني يقرِّب المعنى للمتلقي في هذه الآية بتوظيف أساليب لغوية، وبلاغيّة، منها:

الأول: أسلوب حُسن الصياغة في الأداء، والإبداع في التعبير القرآني. فالآية السابقة كان يمكن للسياق القرآني القول: أولئك أضلُّ من الأنعام. ويبقى السؤال: ماذا أفاد الإضراب في سياق الآية؟ إضراب

الحق - عزّ وجل - بـ (بل) عن التشبيه في الآية إلى التفضيل (أضلّ) أضاف حُسْنًا في الأداء، والإبداع؛ إذْ لو جاء التفضيل في أول الآية لما تحقق هذا الإبداع.

الثاني: أسلوب التدرُّج الذي يهدف لتقديم المعلومة مجتزأة؛ لتصل الذهن الذي قد يعجز عن استيعابها؛ إذْ كيف يستوعب العقلُ البشريُّ المحدودُ القُدراتِ وجودَ مخلوقاتٍ لها أداة للسَّمع، وأخرى للإبصار، وثالثة للتفقه، لكنها غير عاملة (مُعطّلة)، ولكن ما العلاقة التشاركية بينها، وبين الأنعام؟ إذا أدرك الإنسان الصورتين المتشابهتين لعالم الإنس والجن، وصورة الأنعام (الدواب) فلكل منهم قلوب، وعيون، وآذان، وكل هذه الأدوات لم تساعدهم على الإحساس بالأشياء من حولهم فوجه الشبه مُدْرَكٌ محسوس بين الصورتين حتى هذه اللحظة، ثم يأتي النص القرآني بصورة أبشع لنماذج من عالم الجن والإنس أولئك الذين عطّلوا حواسهم تلك بإرادتهم فأصبحوا أضلَّ من الأنعام. والسؤال الحاضر الآن: لِمَ غدت تلك النَّماذج الإنسيّة والجنيّة أضلّ من الأنعام؟؟ .

أجاب المفسرون على هذا التساؤل بقولهم:

- إنّ الأنعام تُبصر منافعها، ومضارَّها؛ فتلزم ما لا تُبصره(36).

- نقل أبو منصور الماتريدي ت333هـ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - تعليله لتشبيه أولئك بالأنعام، فقال: «.. ثم ضرب لهم مثلا فقال: (أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ) في الأكل؛ لأن همتهم ليست إلا الأكل والشرب، كهمة الأنعام. والبهائم ليست همتهم إلا الأكل والشرب وقضاء الشهوة، فهي تسمع النِّداء ولا تعقل؛ فعلى ذلك الكافر وقوله - عَزَّ وَجَلَّ -: (بَل هُم أَضَلُّ)؛ لأنَّ بنية الأنعام لا تحتمل فهم ذلك، وبنية هَؤُلَاءِ تحتمل؛ إذ جعل لهم عقولاً تُمّيز وتعرف حكمة مدبرها ومنشئها، لكنهم ضيّعوها، ولم يكن من الأنعام تضييع؛ لذلك كان أُولَئِكَ أضلّ».

- ذكر السمرقندي ت 373ه(38) في تفسيره غير سبب لتشبيه الكفَّار بالأنعام، منها:

• قلة رغبتهم وتغافلهم عن الحق. فهم كالأنعام في ذهنهم لا في صورهم؛ لأنه ليس للأنعام إلا الأكل والشرب، فهي تسمع ولا تعقل، كذلك الكافر الغافل عن الأمر والنهي والوعد والوعيد، ثم قال: بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً يعني: الكفار أخطأ طريقًا من الأنعام؛ لأنَّ الأنعام إذا عرفت أنّها تركت الطريق رجعت إلى الطريق، والكفار لا يرجعون إلى الطريق.

• لأنَّ الأنعام تعرف ربَّها، والكفار لا يعرفون ربَّهم.

• يُقال: لمَّا نزلت هذه الآية تضرَّعت الأنعام إلى ربِّها. فقالت: يا ربنا شبهت الكفار بنا ونحن لا ننكر وحدانيتك. فأعذر الله تعالى الأنعام. فقال: بَلْ هُمْ أَضَلُّ من الأنعام؛ لأنَّ الأنعام مطيعة لله تعالى. والكفار غير مطيعين لله.

• علل سيد قطب ت 1385هـ(39) تشبيه الجن والإنس بالأنعام؛ لأنّ للأنعام استعداداتٍ فطريّةً تهديها. أما الجن والإنس فقد زُودوا بالقلب الواعي، والعين المبصرة، والأذن الملتقطة. فإذا لم يفتحوا قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم ليدركوا، عندئذ يكونون أضلَّ من الأنعام؛ لأنّ قلوبهم، وعيونهم، وآذانهم لم تلتقط

معاني الحياة، وغاياتها.

ولعل تقريبَ المعنى متحققٌ أيضًا من حصول المبالغة في التفضيل الناتج من مجئ (بل) بعد التشبيه التي أفادت الإضراب عن معنى التشبيه لمعنًى أكثر عُمقًا، وهو الضَّلال الذي يفوق ضلال الأنعام؛ ذلك أنّ معنى بل « الإضراب عَن الأَوَّل، وَالْإِثْبَات للثَّانِي، نَحْو قَوْلك: ضربتُ زيدًا بل عمرًا، وجاءَني عبدُ الله بل أَخوه، وَمَا جاءَني رجلٌ بل امرأَةٌ «(40). وبيّن ابن السرّاج ت316ه أنّ: « ما يقعُ بعد (بَلْ) يقينٌ «(41)؛ فأصبح ضلال هؤلاء يقينًا لما اتصفوا به من تعطيل حواسهم التي ميزّهم الله بها.

وقال غير عالم(42) بإفادة (بل) الإضراب عن الأول، والإثبات لما بعدها، وهو معنًى مهمٌ في هذا السياق الذي قدّم لنا صورةً لهذه النماذج الإنسيَّة والجنيَّة المُعطِلَة لما وهبها اللهُ تعالى إياه صورة التشبيه بالأنعام، ثم أضرب عن هذا المعنى؛ ليقدّم صورةً أكثرَ بشاعة لضلالهم الذي فاق ضلال الأنعام وجهالتها؛ علّها تكون صورةً واقعيّةً قريبةً من القلوب الضَّالة، فتردعها عن غيها وضلالها، ومقوّمةً لسلوكهم البغيض.

الثالث: أسلوب التمثيل، وفي هذا يقول محيي الدين الدرويش: «ومن التمثيل أيضًا نوع آخر ذهب إليه مَنْ جاء بعد قُدامة - يقصد قدامة بن جعفر المتوفى337ه -، وهو أنْ يُذْكَرَ الشَّيءُ؛ ليكون مثالًا للمعنى المراد وإنْ كان معناه، ولفظه غير المعنى المراد ولفظه، كأنّهم لثبوتهم على الضّلالة بمنزلة الأنعام والبهائم، بل أضلُّ سبيلًا؛ لأنَّ البهائم تنقادُ لمَنْ يتعهدها، وتُميّزُ مَنْ يُحسن إليها ممَنْ يُسيء إليها. أمَّا هؤلاء فقد أسفوا إلى أبعد من هذا الدّرك»(43). الحقُّ - جلّ وعلا - أكَّد بتوظيف أسلوب التمثيل، على عمق الضلال الذي عليه الكفَّار بأنّهم لا يشبهون الكفّار في الضلال، بل إنّ الضلال متأصّلٌ فيهم أكثر من الأنعام، فهم يفوقون الأنعام في عدم التدبُّر، وحُسن التفكُّر.

◆ قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيبُ السَّماواتِ وَالأَرضِ وَما أَمرُ السّاعَةِ إِلّا كَلَمحِ البَصَرِ أَو هُوَ أَقرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ﴾ النّحل، 77.

ذكر أبو القاسم الزجاجي ت337ه أنّ (أو) في الآية بمعنى (بل)، فقال: «وَتَكون بِمَعْنى بل {لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْم} وَمِنْه (إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ)» (44). وجعل البيضاوي ت685ه(45) (أو) للتخيير، أو بمعنى بل.

يُلاحظ في الآية الكريمة أنّ الحقَّ - عزّ وجل - يُقرِّب سرعة قيام الساعة بصورة حسّية قريبة من العقل البشري؛ لاستيعاب الأمر بالتدرُّج، وهو لمح البصر، أي: (رمشة العين، أو سرعة الإبصار)، فهذه صورة مرئية مُدركة، ثم يُضْربُ اللهُ - جَلّ في عُلاه - عن هذا المعنى لمعنًى يُوحي بقدرته على سرعة قيام السَّاعة بأنَّها أقرب من لمح البصر، وبأنّ مجئ الساعة يأتي بقدرة الله بسرعة، ولا يستطيع أحدٌ تخيّل هذه السرعة؛ لذا قرَّبها السِّياق القرآني للعقل البشري بسرعة الإبصار أولا، فإذا أُدركت تلك السُّرعةُ، أضرب السياق عن هذا المعنى لمعنى آخر (بل هي أقرب)؛ لتأكيد قدرة الحق القادر على كلِّ شيء. فقيام الساعة أقربُ للإنسان من لمح البصر. ويرى الزجاج ت311ه أنَّ المقصود بقوله تعالى: (كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ): « ليس يريد أنَّ

الساعةَ تأتي في أقرب من لمح البصر، ولكنه يصف سرعة القدرة على الإتيان بها».

وهناك آراء متعددة للمفسرين في هذه الآية، وبالنظر لتلك التأويلات نجد أنّ المفسرين لم يحصروا المعنى في وصف سرعة القدرة على الإتيان بالساعة كما فعل الزجاج، بل توسَّعوا في التفسير، ولخص أبو منصور الماتريدي ت 333هـ آراءهم بما يأتي(47):

أولاً: أَمْرُ السَّاعَةِ أهون على اللَّه وأيسر من لمح البصر؛ إذ ليس شيء أيسر وأهون على الإنسان من لمح البصر؛ لأنه يلمح البصر،(أَوْ هُوَ أَقْرَبُ)،أي: بل هو أقرب، أي: أيسر.

ثانيًا: إعادة الخلق على اللَّه أيسر وأهون من لمح البصر؛ لأنه يلمح بصره فيبصر به - بلحظة - ما بين الأرض إلى السماء، وهو مسيرة خمسمائة عام.

ثالثًا: ما وقت قيام الساعة إلا لمح البصر، أي: ليس بين وقت قيامها وبين كونها إلا لمح البصر، بل هو أقرب من لمح البصر.

رابعًا: ليس ما بين الساعة وبينكم مما مضى من الوقت إلا قدر لمح البصر، أي: لم يبق من وقت قيامها مما مضى إلا ما ذكر من لمح البصر، أو أقرب مما ذكر على استقصار مما بقي.

خامسًا: يؤكد أبو إسحاق ت 427هـ على أنّ أمر الساعة « في قريب كونها، وسرعة قيامها إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ كالنظر في البصر، وَرَجْعِ الطَّرْفِ؛ لأنَّ ذلك هو أنْ يقال له: كُنْ فَيَكُونُ، أَوْ هُوَ أَقْرَبُ، بل هو أقرب».

سادسًا: يؤكّد القرطبي ت 671ه، ما ذكره الزجاج، ويُضيف عليه، فيقول: «.. وَالسَّاعَةُ هِيَ الْوَقْتُ الَّذِي تَقُومُ فِيهِ الْقِيَامَةُ، سُمِّيَتْ سَاعَةً؛ لِأَنَّهَا تَفْجَأُ النَّاسَ فِي سَاعَةٍ فَيَمُوتُ الْخَلْقُ بِصَيْحَةٍ. وَاللَّمْحُ: النَّظَرُ بِسُرْعَةٍ، يُقَالُ لَمَحَهُ لَمْحًا وَلَمَحَانًا. وَوَجْهُ التَّأْوِيلِ أَنَّ السَّاعَةَ لَمَّا كَانَتْ آتِيَةً وَلَا بُدَّ جُعِلَتْ مِنَ الْقُرْبِ كَلَمْحِ الْبَصَرِ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: لَمْ يُرِدْ أَنَّ السَّاعَةَ تَأْتِي فِي لَمْحِ الْبَصَرِ، وَإِنَّمَا وَصَفَ سُرْعَةَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْإِتْيَانِ بِهَا، أَيْ يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ».

سابعًا: ذكر البيضاوي ت671ه أنّ الآية تشير إلى سرعة قيام الساعة، وقربها من الخلائق، فقال: « إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ إلا كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها. أَوْ هُوَ أَقْرَبُ، أو أمرها أقرب منه، بأنْ يكونَ في زمان نصف تلك الحركة، بل في الآن الذي تبتدئ فيه، فإنه تعالى يحيي الخلائق دفعة وما يوجد دفعة كان في آن..أو هو أقرب: مبالغة في استقرابه(50).

كما يلاحظ أنّ هذه الصورة جاءت بين صفتين لله - عز وجل - هما:

الأولى: علم غيب السموات والأرض.

الثانية: القدرة على كل شيء. وفي هذا توجيه للعقل البشري الذي قد لا يُدرك دنو الساعة، وقربها منه، أنه لا غرابة في عدم إدراك ذلك، فإنْ عجزت أيُّها العقل عن إدراك تلك الصورة، فلا تنسَ أنّ الله عالم الغيب قادر على كل شيء، فقيام الساعة بقي في علم الأزل الإلهي، فالله - سبحانه وتعالى - قد أخفاه عن أحبِّ الخلق إليه محمد بن عبدالله - عليه الصلاة والسلام -، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ الأحزاب، 63. يقول الإمام الطبري ت310ه -

رحمه الله تعالى – في تفسير هذه الآية: « يقول تعالى ذكره: (يَسْأَلُكَ النَّاسُ) يا محمد (عَنِ السَّاعَةِ) متى هي قائمة؟ قل لهم: إنَّما علم الساعة (عِنْدَ اللَّه) لا يعلم وقت قيامها غيره (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا) يقول: وما أشعرك يا محمد لعل قيام الساعة يكون منك قريبًا.. ودنا حين مجيئها».

ويؤكّد المولى – عزّ وجل – على أنّ علم الساعة عنده وحده، وعلى أنها تأتي فجأة، فيقول: ﴿يَسأَلونَكَ عَنِ السّاعَةِ أَيّانَ مُرساها قُل إِنَّما عِلمُها عِندَ رَبّي لا يُجَلّيها لِوَقتِها إِلّا هُوَ ثَقُلَت في السَّماواتِ وَالأَرضِ لا تَأتيكُم إِلّا بَغتَةً يَسأَلونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنها قُل إِنَّما عِلمُها عِندَ اللَّهِ وَلكِنَّ أَكثَرَ النّاسِ لا يَعلَمونَ الأعراف، 187. فهذه الآية والآيتان السابقتان تؤكد الحقائق الآتية:

1.لا أحد يعلم متى أمر الساعة إلا الله وحده – عز وجل – .

2. تأتي الساعة بغتة، أي: فجأة والناس في غفلة.

3. مجئ الساعة قريبٌ جدًّا من المخلوقات، فهي أقرب إليهم من لمح البصر.

4. تصوير السياق القرآني قُرب مجئ الساعة من البشر بصيغة التفضيل (أقرب) توضيحًا وتقريبًا للحظة المجئ، ومبالغة في استقرابه؛ كي يبقى العبدُ مستعدًّا لذلك اليوم باستمرار العبادة وبالسلوك الأفضل، فما تدري متى تقوم الساعة، وبهذا يأتي اسم التفضيل مقرّبا لمعنى دنو قيامها، ومؤكِّدًا على العقيدة القائمة على الغاية من الخلق، وهي العبادة، والاستعداد الدائم لملاقاة الحق – جلّ وعلا – .

وهناك آيات(52) متعددة في السياق القرآني عمدت إلى التدرُّج في إيصال المعنى؛ بهدف تعزيزه في النفس؛ لتحقيق الغاية منه، وهو تقويم السلوك، وتحفيز المسلم لاتباع تعاليم هذا الدين الذي يركّز على محاسن الأخلاق.

ثالثًا: تخصيص المعنى والتأكيد عليه:

جاءت صيغة (أفعل التفضيل) في القرآن؛ لتُخصص المعنى وتؤكّده، وذلك خلال الإتيان باسمَي تفضيل متعاطفَيْن؛ ليعمِّقَ المعنى في الاسم الأول، ويؤكّد عليه، من ذلك:

- قوله تعالى: ﴿وَأَوفُوا الكَيلَ إِذا كِلتُم وَزِنوا بِالقِسطاسِ المستَقيمِ ذلِكَ خَيرٌ وَأَحسَنُ تَأويلًا الإسراء، 35.

يأمر الله عباده في الآية بالعدل في البيع والشراء بوساطة توظيف اسمي تفضيل متعاطفَيْن: (خير، وأحسن)، وقد بيّن الماوردي ت450هـ أنّ: « {ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً} فيه وجهان: أحدهما: أحسن باطناً فيكون الخير ما ظهر، وحُسْن التأويل ما بطن. الثاني: أحسن عاقبة, تأويل الشيء عاقبته»(53). أما ابن كثير ت774ه، فيقول: « قَالَ سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ:{ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}، أَيْ: خَيْرٌ ثوابًا، وأحسنُ عاقبةً»(54). أوَ ليس خيرُ الثواب هو عاقبة الشَّيء؟ فاللهُ يُجازي الفئة المؤمنة التي توفي الكيل والميزان بالخير الذي الأحسن عاقبة، والأحسن مآلا، فجاء اسم التفضيل (أحسن) المعطوف على اسم التفضيل (خير) مُعزِّزًا لمعناه، ومُعمِّقًا له، ومؤكِّدًا عليه.

ـ قوله تعالى: ﴿هُنالِكَ الوَلايَةُ لِلَّهِ الحَقِّ هُوَ خَيرٌ ثَوابًا وَخَيرٌ عُقبًا﴾ الكهف، 44.

قد يُقال: في هذه الآية جاء المتعاطفان باللفظ نفسه(خيرٌ)، فأين إفادة تأكيد المعنى؟!

وعلى هذا فإنّ كلمة (خير) في الآية وردتا بمعنيين مختلفين؛ لأنّ كليهما نكرة، كما أنّ التمييز بعدهما منحهما معنًى جديدًا، فـ(خيرٌ) الأولى مُيّزت بالثواب، وأما (خيرٌ) الثانية، فقد مُيّزت بعُقبًا، فهما بمعنيين مختلفين وإنْ اتفق لفظهما، يقول أبو الحسن مقاتل بن سليمان الأزدي ت 150ه: «هُوَ خَيْرٌ ثَواباً يعني أفضل ثوابا وَخَيْرٌ عُقْباً، يعني أفضل عاقبة لهذا المؤمن من عاقبة هذا الكافر الذي جعل مرجعه إلى النار»(55). وفسَّرَ الطَّبري ت310ه الآية، فقال: «(هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا) يقول عزّ ذكره: خيرٌ للمنيبين في العاجل والآجل ثوابا (وَخَيْرٌ عُقْبًا.) يقول: وخيرهم عاقبة في الآجل .. والعقب هو العاقبة، يقال: عاقبة أمر كذا وعُقْباه وعُقْبه، وذلك آخره وما يصير إليه منتهاه»(56) .

ـ قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ الفرقان، 24.

« قَالَ: بعض المحدثين يرَون أَنَّهُ يفرغ من حساب الناس في نصف ذَلِكَ اليوم فيقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار. فذلك قوله (خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا) وأهل الكلام إِذَا اجتمع لَهُم أحمق وعاقل لَمْ يستجيزوا أنْ يقولوا: هَذَا أحمق الرجلين ولا أعقل الرجلين، ويقولون لا نَقُولُ: هَذَا أعقل الرجلين إلا لعاقلين تفضّل أحدهما عَلَى صاحبه. وقد سمعت قول الله (خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا) فجعل أهل الجنة خيرًا مستقرًا من أهل النار، وليس في مستقر أهل النار شيء من الخير»(57). كما ذكر القنوجي ت1307ه أنَّ: « الجنة أفضل وأدوم من الدنيا؛ لأنها تشتمل على السعادة الجسمانية والروحانية « .

ويرد النّحاس على الفرَّاء، فيقول: « أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا ابتداء وخبر، وقد ذكرنا مثله قبل هذا في: « أَذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ» الفرقان، 15، وحكينا قول الكوفيين أنهم يجيزون: العسل أحلى من الخلّ. وذكر الفراء في هذه الآية ما هو أكثر من هذا، فزعم أنّ المعنى:

أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرّا من أهل النار، وليس في مستقرّ أهل النار خير، فكأنه ردّ على نفسه، وسمعت علي بن سليمان يقول في هذا ويحكيه إنّ المعنى: لمّا كنتم تعملون عمل أهل النار صرتم كأنكم تقولون: إنّ في ذلك خيرا، وقيل خير مستقرّا مما أنتم فيه «(59). أمّا القرطبي ت671ه(60) ففسّر الخير: بـ (أفضل)، وأبقى بـ (أدوم من الدنيا). فَالدَّارُ الْآخِرَةُ، هِيَ الْجَنَّةُ. وهي خَيْرٌ، أَيْ: أَفْضَلُ. وَأَبْقى، أَيْ: أَدْوَمُ مِنَ الدُّنْيَا.

وبعد إنعام النظر في الآيات المكية المشتملة على اسمي تفضيل متعاطفَيْن وجد الباحث أنّ لهذه الأسماء أغراضًا دلالية متعددةً، منها:

1. الترغيب بأمر محمود؛ لحث المسلمين على إتيانه، نحو:

• قوله تعالى:﴿المالُ وَالبَنونَ زينَةُ الحَياةِ الدُّنيا وَالباقِياتُ الصّالِحاتُ خَيرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوابًا وَخَيرٌ أَمَلًا﴾الكهف،

46. تحث الآيات المؤمنين على ترك متاع الدنيا من مالٍ وبنين، والتفرُّغ للأعمال الصالحة، يقول محمد رشيد رضا: « قَالُوا: الْمَعْنَى أَنَّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ الَّتِي يَبْقَى ثَوَابُهَا لِلْإِنْسَانِ بَعْدَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَيْرٌ مِنْ زِينَةِ الْمَالِ فِيهَا ثَوَابًا، وَخَيْرٌ مِنَ الْبَنِينَ فِيهَا أَمَلًا»(61) . فأفعل التفضيل(خير) وظِّف؛ لحثِّ المسلمين على أمر محمود؛ لتأديته.

• وقوله تعالى:﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغفِرَ لَنَا خَطايانَا وَما أَكرَهتَنَا عَلَيهِ مِنَ السِّحرِ وَاللَّهُ خَيرٌ وَأَبقى﴾ طه، 73. ووردت آيات أخرى(62) تتضمَّنُ مثل هذا المعنى.

2. التهديد والوعيد؛ بهدف أخذ العبرة، وتعديل السلوك، نحو:

• قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُم فِي جُذوعِ النَّخلِ وَلَتَعلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذابًا وَأَبقى﴾ طه، 71. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الفرقان، 34.

• وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ القصص،78. جاء التفضيل في الآية (أكثر) موصوفًا بالقوة؛ لأخذ العبرة، وتعديل السلوك؛ ففي القرون الأولى تمَّ إهلاك مَنْ كان أشدّ قوةً، وأكثر جمعًا للكنوز من قارون. ووردت آيات أخرى الكهف، 54، ومريم 69. ذُكر فيها التفضيل موصوفًا بالشِّدة، وما ذاك إلَّا لإضفاء صورة قوية تدفع القارئ لتعديل سلوكه إنْ كان معوّجًا، وزياد ثباته إنْ كان مستقيمًا.

• وقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ فُصِّلت، 16. يقول الطبري ت310هـ: «يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وَلَعَذَابنَا إِيَّاهُمْ فِي الْآخِرَةِ أَخْزَى لَهُمْ وَأَشَدُّ إِهَانَةً وَإِذْلَالًا»(64).

ووردت آيات أخرى(65) تتضمن مثل هذا المعنى.

3. التأكيد على أنَّ ما عند الله خيرٌ من أي شيء؛ لتثبيت عقيدة المسلم المستسلمة لأوامر الله، والصامدة أمام إغراءات الدنيا، نحو:

. قوله تعالى:﴿إِنّا آمَنّا بِرَبِّنا لِيَغفِرَ لَنا خَطايانا وَما أَكرَهتَنا عَلَيهِ مِنَ السِّحرِ وَاللَّهُ خَيرٌ وَ أَبقى﴾ الكهف، 73.

. وقوله تعالى:﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَينَيكَ إِلى ما مَتَّعنا بِهِ أَزواجًا مِنهُم زَهرَةَ الحَياةِ الدُّنيا لِنَفتِنَهُم فيهِ وَرِزقُ رَبِّكَ خَيرٌ وَ أَبقى﴾ الكهف،131.

المعاني الدّلاليّة لأفعل التّفضيل في اللغات السّاميّة:

معلوم أنَّ التَّفضيلَ يعني: اشتراكُ أمْرَيْن في صِفةٍ واحدةٍ وزيادتها في أحدهما على الآخر. ففي العبريَّة: الدبس (العسل) أحلى من التُّفاح، وذلك أنَّ العسل والتُّفاح يشتركان في صفة الحلاوة؛ لكنَّ حلاوةَ الدِّبس (العسل) فاقتْ حلاوةَ التُّفاح. وفي السّريانيّة: أعمى العينين (عوير بعينوهي) أفضل من أعمى القلب (عوير بلبِّه) (اللب: القلب)، وذلك أنَّ أعمى العينين، وأعمى القلب اشتركا في الغفلة، لكنَّ غفلةَ أعمى العينين فاقت غفلةَ أعمى القلب.

نتائج البحث

1 - اختلاف اللغات السامية في الصياغة الاشتقاقية لصيغة أفعل التفضيل عن العربية متمثلة بأهم لغتين ساميتين هما: العبرية والسريانية، ففي الوقت الذي

تصاغ فيه في العبرية على وزن (مفعول) فإنها تُصاغ في السريانية على وزن (فعل) وفي هذا اختلاف كبير عن العربية الفصيحة.

2 - اتفاق اللغات السامية مع العربية الفصيحة من حيث الدلالات التي تضيفها هذه الصيغة الصرفية في الجملة، حيث التوافق التام في اشتراك أمرين في صفة واحدة وزيادتها في أحدها على الآخر.

3 - اختلاف اللغات السامية عن العربية الفصيحة من حيث العمل، ففي الوقت الذي هي فيه عاملة في العربية الفصيحة، إلا أنها غير عاملة في اللغات السامية؛ نظراً لخلو اللغات السامية من النحو والإعراب.

4 - تتفوَّق العربية الفصيحة على اللغات السامية باستخدامها لهذه الصيغة الصرفية، من حيث صياغتها الاشتقاقية، وعملها؛ مما يؤكد أنَّ العربية هي أم اللغات السامية التي انحدرت منها باقي اللغات الأخرى.

-5 دقة العلماء في وضْع حدود أفعل التفضيل وشروطه بناء على استقراء العرب.

-6 كثافة ذِكْر أفعل التفضيل في السّور المكيّة.

-7 دلالة أفعل التفضيل على الاشتراك والزِّيادة، علمًا أنّ اللغة تميل للتَّخصيص واليقين.

-8 ملاءمة أسلوب التفضيل لعقلية الإنسان العربي.

-9 لا يتفق البحث مع مَنْ يقول: إنّه ليس لأفعل التفضيل دلالة على التفضيل، وقد ناقش البحث هذا القول، ودحضه.

-10الأسلوب التفضيل دلالاتٌ متعدِّدةٌ في السّياق القرآني المكّي، فهو يدُّل على:

- التهديد والوعيد.

المصادر والمراجع

الحمـلاوي، الشـيخ أحمـد بـن محمـد(1347ه/1928م): شـذا العـرف في فـن الصّـرف. ط: 16، مصـر1965م. ص82، وقبـاوة، الدكتـور فخـر الديـن: تصريـف الأسـماء والأفعـال، ط: 2، مكتبـة المعـارف، بيـروت 1988. ص166، 167، والحديثـي، خديجـة: أبنيـة الصَّـرف في كتـاب سـيبويه، ط:1، منشـورات مكتبـة النهضـة، بغـداد، 1965. ص248، والجنـدي، الدكتـور طـه محمـد في: التنـاوب الدلالـي بـين صيـغ الوصـف العامـل، القاهـرة، 1998، ص34، 35.

جلال الدين السيوطي، همع الهوامع، ج 6، ص44، 45.

الـرّازي، فخـر الدّيـن أبـو عبـد اللّه، محمـد بـن عمـر(ت 606ه/1209مـ): التفسـير الكبيـر، ط:3، دار إحيـاء التـراث العربـي - بيـروت 1420هـ. ج7، ص97.

التفسير الكبير. ج21، ص430.

ربحي كمال، 1982: دروس اللغة العبرية، ط1، عالم الكتب، بيروت. ص126.

هبو،أحمـد، 1976: المدخـل إلـى اللغـة السـريانية، ط1، مديريـة الكتـب والمطبوعـات الجامعيـة، جامعـة حلـب، حلـب، سـورية، ص230

المدخل إلى اللغة السريانية، ص230.

يُنظر: خليف، الدكتور يوسف: دراسات في القرآن والحديث، مكتبة غريب (د.ت). ص57 – 59.

دراسات في القرآن والحديث، ص58، 59.

بحـث للدكتـور عفيـف عبـد الرحمـن بعنـوان: «الأمثـال العربيـة علـى صيغـة أفعـل التفضيـل». المجلـة العربيـة للعلـوم الإنسـانيّة، جامعـة الكويـت. المجلـد السـادس، شـتاء 1986. ص42 – 45.

ابـن جنـي، أبـو الفتـح عثمـان بـن جني(ت392هـ/1001م): المنصـف، تحقيـق: إبراهيـم مصطفـى، وعبـد اللّه أمـين، ط: 1،(د.م) 1954. ج1، ص319. والسّـكّاكي، يوسـف بـن أبـي بكـر(ت 626هـ/1229م): مفتـاح العلـوم. ط:1، بيـروت - لبنـان 1983. ص51. والاسـترابـاذي، ركـن الديـن(ت715ه/1315م): الوافيـة في شـرح الكافيـة، تحقيـق: عبـد الحفيـظ شـلبي، عُمـان(د.ت). ص247، 248.

«الأمثال العربية على صيغة أفعل التفضيل» ص42.

المرصفي، عبد الحليم عبد الباسط: من صيغ وأوزان العربية «أفْعَل»، ط: 1، 1978. ص169.

سورة الأعراف، آية37.

تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنَّة)، 7/212، 213 .

القِنَّوجي، أبو الطيب، محمد صديق خان(ت1307هـ/1879م): فتحُ البيان في مقاصد القرآن، قدّم له وراجعه: عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري. المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا - بَيروت، 1412 هـ - 1992م. ج8، ص122.

الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، (كنع) 1/205.

ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد(ت1393ه/1973مـ): التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدّار التُّونسيّة للنَّشر - تونس1984ه. ج16، ص46.

محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن وبيانه، ط3، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق - بيروت. دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق - بيروت. دار الإرشاد للشؤون الجامعية، حمص - سورية 1992م. ج6، ص35.

الطّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج18، ص244.

تنظر الآيات في السّور الآتية: سورة الأنعام، الآيات: 21، 93، 144، 157. والكهف، الآيتين: 15، 57. والفرقان، الآيات: 34، 42، 44. وفُصلت، الآيات: 27، 29، 52.

توفيق محمد «أفعل التفضيل في القرآن الكريم»، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السّعودية.ص248.

يُنظر: الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ج2، ص392.

مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، المجلد: العشرون، العدد الثاني، يونيو 2012.ص 247 - 294.

المبرد، المقتضب، ج1، ص12.

ابن السّراج، أبو بكر محمد بن السري(ت316ه/928م): الأصول في النحو، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، لبنان - بيروت (د.ت). ج2، 58.

ابن الورّاق، أبو الحسن، محمد بن عبد الله(ت381هـ/941م) في: علل النحو، تحقيق: محمود جاسم محمد الدرويش. ط:1، مكتبة الرشد – الرياض / السعودية، 1420 هـ - 1999م. وابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني(ت392هـ/1001م) في: اللمع في العربية، تحقيق: فائز فارس. دار الكتب الثقافية - الكويت(د.ت). ص93.

البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي. ج3، ص235. 3/235.

الماتريدي، تأويلات أهل السنة. ج6، ص543، 544.

مجلة كلية اللغة العربية، العدد الثاني عشر، ص241 - 293. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السّعودية.

القرطبي، الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي. ج10، ص150.

البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل. ج3، ص235.

الطبـري، جامـع البيـان في تأويـل القـرآن. ج1، ص146. 1/146.

مقاتـل بـن سـليمان، أبـو الحسـن، مقاتـل بـن سـليمان(ت150ه/767مـ): تفسـير مقاتـل، تحقيـق: عبـد اللّٰه محمـود شـحاته. ط:1، دار إحيـاء التـراث - بيـروت، 1423ه. ج2، ص587.

جامع البيان في تأويل القرآن. ج18، ص29.

من صيغ وأوزان العربية «أفْعَل»، ص179.

المحاربـي، أبـو محمـد، عبـد الحـق بـن غالب(ت542هـ/1147م): المحـرر الوجيـز في تفسـير الكتـاب العزيـز، تحقيـق: عبـد السـلام عبـد الشـافي، ط: 1، دار الكتـب العلميـة - بيروت1422هـ. ج2، ص397.

الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج12، ص408.

الماتريدي، أبو منصور، محمد بن محمد(ت333ه/944مـ): تفسـير الماتريـدي (تأويـلات أهـل السـنة)، تحقيـق: د. مجـدي باسـلوم. ط:1، دار الكتـب العلميـة - بيـروت، لبنـان، 1426 هـ - 2005 م. ج4، ص415.

الزّجاج، أبو إسحاق، إبراهيم بن السري(ت311ه/923مـ): معانـي القـرآن وإعرابـه، تحقيـق: عبـد الجليـل عبـده شـلبي، ط: 1، عالـم الكتـب - بيـروت، 1408 هـ - 1988م. ج3، ص343.

الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج1، ص146.

الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، ج5، ص97.

أبو الليث السـمرقندي، نصر بن محمد(ت 373ه/983م): بحر العلوم، المكتبة العلمية(د.ت). ج1، ص568، 569.

يُنظـر: سـيد قطـب، إبراهيـم حسـين(ت1385هـ/1965م): في ظـلال القـرآن، ط: 17، دار الشـروق - بيـروت- القاهـرة 1412هـ. ج3، ص1401.

محيـي الديـن الدرويـش، إعـراب القـرآن وبيانـه. ج7، ص20.

الزجاجـي، أبـو القاسـم، عبـد الرحمـن بـن إسـحاق(ت337ه/948مـ): حـروف المعانـي والصفـات، تحقيـق: علـي توفيـق الحمـد. ط:1، مؤسسـة الرسـالة - بيـروت، 1984م. ص13.

أبو إسحاق الثعالبي، أحمد بن محمد(ت427ه/1035مـ): الكشـف والبيـان عـن تفسـير القـرآن، تحقيـق: الإمـام أبـي محمـد بـن عاشـور، مراجعـة وتدقيـق: الأسـتاذ نظيـر السـاعدي ط:1، دار إحيـاء التـراث العربـي، بيـروت - لبنـان، 1422هـ - 2002م. ج6، ص33.

مـن ذلـك قولـه تعالـى: ﴿وَمـا يَعـزُبُ عَـن رَبِّكَ مِـن مِثقـالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرضِ وَلا فِي السَّـماءِ وَلا أَصغَـرَ مِـن ذلِـكَ وَلا أَكبَـرَ﴾ يونـس، 61، وقولـه: ﴿ثُـمَّ دَنَـا فَتَدَلَّـى ﴿٨﴾ فَـكَانَ قَـابَ قَوْسَـيْنِ أَوْ أَدْنَـى﴿٩﴾ النجـم.

المـاوردي، أبو الحسـن، علي بـن محمد(ت450ه/1058مـ): تفسـير الماوردي=النكـت والعيـون، تحقيـق: السـيد ابـن عبـد المقصـود بـن عبـد الرحيـم. دار الكتـب العلميـة - بيـروت، لبنـان(د.ت). ج3، ص 243.

ابـن كثيـر، أبـو الفـداء، إسـماعيل بـن عمر(ت774هـ/1372م): تفسـير القـرآن العظيم، تحقيق: محمـد حسـين شـمس الديـن. ط:1، دار الكتـب العلميـة، منشـورات محمـد علـي بيضـون، بيـروت 1419هـ. ج5، ص 68.

الفـرّاء، أبـو زكريـا، يحيـى بـن زيـاد(ت207ه/822م): معانـي القـرآن، تحقيـق: أحمـد يوسـف النجاتـي، وآخريـن. ط: 1، دار المصريـة للتأليـف والترجمـة - مصـر. ج2، ص267.

القِنَّوجي، فتحُ البيان في مقاصد القرآن. ج15، ص195.

أبـو جعفـر النّحـاس، أحمـد بـن محمـد(ت338ه/949م): إعـراب القـرآن، وضـع حواشـيه وعلـق عليـه: عبـد المنعـم خليـل إبراهيـم، ط: 1، دار الكتـب العلميّـة، بيـروت1421ه. ج3،ص209.

مجلـة المجمـع العلمـي العراقـي، الجـزء الأول، مجلـد 38، ص5 - 11، آذار 1987م.

رضـا، محمـد رشـيد(المتوفى: 1354هـ/1935م): تفسـير القـرآن الحكيـم (تفسـير المنـار)، ط: 2، الهيئـة المصريـة العامـة للكتـاب، ، دار طيبـة للنشـر والتوزيـع 1420هـ - 1999م. ج 10، ص204.

سـورة طــه، آيـة 131، والمؤمنـون، 72، والفرقـان 24، والقصـص، 60، والشّـورى، 36، والمُزمّـل، 20، وألأعلـى، 17.

سورة الكهف، آية 54، ومريم 69.

الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج20، ص402.

سورة طـه، آية 127، والفرقان 34، والنجم، 52، والقمر، 46، والجن، 24.

أوضـح المسـالك إلـى ألفيـة ابـن مالك، تحقيـق: محمد عبد الحميد ط:5، بيروت 1979م، ج3 ص286 - 287.

ابـن السِّـكيت، أبـو يوسـف، يعقـوب بـن إسـحاق (ت244ه/858م): إصـلاح المنطـق، ط:2، دار المعـارف، مصـر 1956م. ص307.

الأزهـري، خالـد بـن عبـد الله (ت 905ه/1499م): شـرح التّصريـح علـى التّوضيـح، أو التّصريـح بمضمـون التّوضيـح في النّحـو، ط: 1، دار الكتـب العلميّـة، بيـروت - لبنـان 2000م. ج2، ص166.

الأداء المُنفَرد لآلة الكنترباص في بعض السيمفونيات وقيمتهُا التعليمية لدارس الآلة المبتدئ